المبحث الاول

السـنـد

تقع الهند جنوب النطاق الجبلي العظيم المعروف بجبال الهملايا الذي يمتد من الشرق الى الغرب في جنوب قارة آسيا كما ان معظم شبه جزيرة الهند يقع جنوب مدار السرطان . وقد شهدت جبال الالب أربع فترات جليدية في عصر البلايستوسين غير ان سهل السند والكنج وشبه جزيرة الهند لم تشهد أي عصر جليدي . ان المعلومات المتوفرة لدينا عن الهند في عصور قبل التاريخ قليلة وهي تستند الى الاثار التي عثر عليها فوق سطح الارض والى الاثار المكتشفة اثناء اجراء التنقيبات الاثرية المنظمة ويبـــدو من المصدرين ان الهند منذ اقدم العصور كانت الارض التي التقى فيها نوعان من الحضارة ففي العصر الحجري القديم كانت منطقة جنوب الهند مركزا لصناعة الفؤوس اليدوية التي تسود فيها طرز الصناعة الافريقيةوالاوربية الغربية . اما شمال الهند فكانت تنتشر فيها آلات الفرم والشظايا التي كانت شائعة في شرق آسيا(١) .

ووجدت آلات اقد مالادوار من العصر الحجري القديم الادنى في اقليم روال بندى في شمال غرب الهند . وتدل آلات حجرية مصنوعة على هيئة شظايا خشنة عثر عليها في مدرجات نهر سوان في شمال شرق البنجاب على اقدم اثار بشرية في الهند اطلق عليها الاثاريون آلات الحضارة السوانية(٢) التي كانت سائدة اثناء الفترة غير الجليدية الثانية التي تقابل فترة مندل ورس غير الجليدية في اوربا ولكنها استمرت فترة طويلة وجرى البحث عن آثـار انســـان العصر الحجري القديم في منطقة بومبـــاى شـــمال نارباوا وفي مناطق وسط الهند وجنوبها الشرقي الا ان كثيرا من الا النواة التي وجدت كانت من صنف رديء ثم تطورت صناعة الآلات فاستعمل الخشب والعظام والقرون في تشكيل الآلات التي تشبه الصناعة الاشولية في غرب اوربا

Scanned by CamScanner

وافريقية · واستخدمت في عصر احدث من هذا آلات مصنوعة من العظام واحيانا من عظام حيوانات بائدة لا وجود لها في الوقت الحاضر · واعتقد البعض ان الهند هي الوطن الذي بدأت فيه صناعة آلات النواة غير ان الراي السائد الآن هو ان شمال افريقية والاقطار المجاورة لها في آسيا الصغرى هي الوطن الذي بدأت فيه صناعة آلات النواة بمهارة ومن المحتمل ان تكون هذه الصناعة قد وصلت إلى الهند من الغرب وفي وسط وشمال غرب الهند وجدت نماذج من آلات العصر المكدليني بالقرب من كورنول في سنكابور (٣) ·

ولما كانت الهند فيما عدا مرتفعات الهملايا لم ينتشر فيها الجليد خلال البلايستوسين فان هذا يعني ان الانسان استطاع ان يعيش في هذه البلاد اثناء الفترات الجليدية التي اجتاحت غيرها · وقد وجدت في الهند منذ زمن مبكر جدا غابات كثيفة استفادت منها الجماعات البشرية التي لا تزال تحتفظ بمستوى بدائي في الحياة وذلك بالالتجاء اليها عند الحاجة · وكانت هذه المناطق بيئات لا تشجع على اجتذاب الاقوام القوية الغازية التي تتسلح بآلات افضل وتفضل العيش في جهات مكشوفة ولذلك تمثلت في الهند انماط متناقضة لاساليب الحياة والفكر بين جماعات تعيش معيشة بدائية في الغابات والاحراج وبين الجماعات التي تعيش في مستويات اعلى في السهول المكشوفة وعندما تقهقر الجليد في آواخر عصر البلايستوسين طغت مياه الطوفان على سفوح الهملايا وتركت بلا شك اثارها اذ حملت كميات هائلة من الطين وارسبتها على قاع ما هو معروف الان بسهول السند والكنج مكونة طبقات سميكة من التربة الخصبة ساعدت فيما بعد على قيام مراكز زراعية نشطة في العصر الحجري الحديث · وتوجد في شبه جزيرة الهند مساحات صخرية فوق السهول لم تنمو عليها الغابات وكان يسكنها اناس صنعوا آلات حجرية بهيئة شظايا صغيرة كانت واسعة الانتشار في أفريقية واوربا وجنوب غرب آسيا وقد عرفت بالآلات الدقيقة Microliths وكانت هذه الآلات المسننة من حجر الصوان والكوارتز تركب في قطع من الخشب أو العظام أو القرون لصنع ادوات فعالة في القطع والتمزيق والنشر ويبدو

Scanned by CamScanner

انها ظلت سائدة في شبه جزيرة الهند كلها حتى حل محلها المدن بالتدريج(٤) .

وفي مخلفات العصر الحجري الحديث(٥) في بلوجستان والسند وجدت دلائل على قيام حضارات قديمة اساسها الزراعة وتدجين الحيوان وقد بدات ممارسة زراعة الحبوب في الانتشار من جنوب غرب آسيا الى تلال شرقي بلوجستان ومن ثم وصلت الى سهل السند وفي ذلك الوقت كانت منطقة جنوب غرب آسيا قد تقدمت كثيرا في فنون الصناعة وخاصة صناعة البرونز . ويبدو ان الذين هاجروا من هذا الاقليم نحو الشرق لم يحملوا معهم كل ما وصل اليه وطنهم الأول من تقدم صناعي اذ ظلت صناعة صب البرونز عملية غير دقيقة في السند . وقد افتتح فصل جديد من تاريخ الهند عند اجراء التنقيبات في هارابا(٦) وموهنجودارو(٧) وغيرهما بعد الحرب العالمية الاولى ويبدو الآن ان منتجي الطعام كانوا يسكنون القرى في حوض السند الادنى وشرقي بلوجستان قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ثم تكون بعد ذلك تنظيم اجتماعي سياسي على نطاق اكبر في السند واتخذت هارابا عاصمة له في البنجاب وظهر تنظيم آخر في الجنوب وعاصمته موهنجو دارو على بعد ٥٠٠ كيلو مترا منه وذلك حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد أي ان وادي السند شهد حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد قيام حضارة عظيمة تطورت من حضارة العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين المستخدمين في الطعام ولم يعثر حتى الآن على الرز في هذه المناطق .

واكتشفت اثار لحضارة زراعية قديمة قرب ممر بولان وسميت بحضارة كوتا(٨) Quetta نسبة الى قرية قامت بعد ذلك قرب الطرف الغربي للبر ووجدت في هذه القرية القديمة اواني فخارية مصقولة مزخرفة بخطوط هندسية لونها خليط من اللونين القرمزي والبني وتشبه هذه الاواني الفخارية اواني القرية الثالثة في تبة سيالك في ايران واواني

Scanned by CamScanner

قرية سوسة الاولى في جنوب العراق ويعود تاريخها الى بداية الالف الرابع قبل الميلاد . وتدل نقوش هذا الفخار والآثار الاخرى المكتشفة على وجود علاقات بين هذه القرى القديمة وبين السند الادنى وشرقي بلوجستان منذ زمن مبكر . اما العلاقات بينها وبين مدن السند الاخرى فقد تمت فيما بعد عن طريق مكران . ووجدت في مواقع رانا قوندای بوادي زوب اواني فخارية مصنوعة باليد ونصال صوانية وسهام عظمية ولكن لم يعثر على بقايا مباني ومن المحتمل ان تكون هذه المواقع مخيمات مؤقتة سكنها رعاة رحل اهتموا برعي الثور ذي السنام وبرعي الضان اضافة الى استخدامهم الحمار والحصان . ووجدت في مواقع أخرى في جنوب بلوجستان والسند اواني فخارية جيدة مصقولة ومصنوعة على الدولاب ورقيقة مزخرفة بشريط أبيض تزينه في بعض المواقع كما في نوندارا رسوم حمراء اللون وكانت الاواني التي وجدت الى الشمال من ذلك في موقع نال في جبال براهوی مزخرفة بنقوش زرقاء وصفراء وخضراء والزخارف نباتية وحيوانية وهندسية ووجدت في كولي Kulli (٩) وغيرها من مواقع جنوب بلوجستان تماثيل نسوية صغيرة تتحلى بالاقراط والاساور والعقود التي اهتم بها الفنان اكثر من اهتمامه بابراز ملامح الوجه كما وجدت اواني صغيرة منحوته من الحجارة اللينة . ومن المحتمل ان تكون هذه القرى قد استمرت في كثير من الحالات حتى زمن قيام حضارة هارابا وموهنجو دارو حيث نجد في بعض هذه القرى قطعا من نماذج لعربات . ووجد في هذه القرى قدر لا بأس به من البرونز الى جانب النحاس بل ان بعض قطع الاثار كانت تحتوي على النيكل والرصاص كالفاس الذي وجد في نال وتعود هذه الاثار لوقت متأخر .

وقد نالت هارابا وموهنجو دارو وهما اكبر مدينتين في وادي السند قدرا كبيرا من الدراسة والاهتمام(١٠) ولا تزال هناك مدن اقل أهمية لم تدرس بعد تقع في منطقة جافة جنوب غرب البنجاب تسمى باهاولبور

Scanned by CamScanner

Bahawalpur قرب مجرى نهر قديم جاف وهو نهر سارفاني
Sarvati المشهور في الاداب الهندية القديمة . وتبعد هارابا عن
موهنجو دارو بنحو ٥٠٠ كيلو مترا وتقعان معا على نهر السند وكانت كل
مدينة تتبعها قرى كثيرة غير انه لا يوجد أي اثر للعمران على طول المسافة
النهرية التي تفصل بينهما ويبدو ان موهنجو دارو وهارابا كانتا عاصمتين
للسند احداهما في الجنوب والاخرى في الشمال وتشبه كل منهما الاخرى
في التخطيط اذ تمتازان بشوارع متعامدة شمالية جنوبية وشرقية غربية
ولكل منهما قلاع بقيت بمكانها في الوقت الحاضر اكوام على مستوى اعلى من
مستوى بقية المدن . وقد نهبت هارابا واقتلع منها الاجر واللبن فيما مضى
كما بنى معبد بوذى في سنة ٣٠٠ ميلادية فوق تلال موهنجو دارو ولا يعرف
الآن الشيء الذي كان موجودا تحته وكانت قلعة هارابا تتكون من مسطبة
كبيرة من اللبن يتوسطها مركز مشيد باللبن تحيط به اسوار من الاجر وكان
للقلعة مدخلان احدهما في الشمال والآخر في الغرب تسلكهما المواكب ويبدو
أن جدران القلعة تجددت اثناء تطور المدينة وان البوابة الغربية سدت
وربما كان سبب ذلك حدوث فترة اضطراب . ووجد في موهنجو دارو قرب
المنطقة التي بنى فوقها معبد بوذي حوض كبير وحجرات لخلع الملابس كما
وجدت بناية كبيرة حول فناء واسع ربما كانت مركزا للسلطة في المدينة .
وكانت احسن البيوت مجهزة بحمامات وبعض هذه البيوت من طابقين ولها
سقف مسطح تبرز منه مزاريب لتصريف مياه الامطار . وكانت انابيب
تصريف المياه القذرة توضع داخل جدران المنزل وتنتهي بمجاري مبطنة
بالاجر تسير تحت الشوارع تغطيها الاحجار وتلقي ما تحمله من فضلات
في حفر خارج المدينة . وكانت المجاري ذات أغطية يمكن رفعها لتأمين
نظافتها . وللمنازل جدران عالية خالية من النوافذ الا في الطوابق العليا
وقد ظل هذا الطراز المعماري باقيا لم يتغير عدة قرون . ووجدت قرب
أكوام الغلال مساكن صغيرة ذات حجرتين ربما كانت للعمال الذين كان

Scanned by CamScanner

بعضهم يعمل في طحن الغلال بمطاحن ذات مدقات ضخمة ثقيلة وجدت واحدة منها في موهنجودارو ·

كان الشعير أهم محصول للزراعة ولكن قمح الخبز زرع ايضا ولايوجد دليل على زراعة الرز بينما زرع القطن وهناك دلائل تشير على نسجه · اما الحيوانات المستانسة فكانت منها الابقار ذات السنام والقرون الطويلة المألوفة في الهند الا انه وجدت انواع من الابقار قصيرة القرون ولاسنام لها ومنها الضان والماعز والخنازير والجاموس والحمير وربما عرف هؤلاء استئناس الفيل والدواجن ووجدت بعض العظام للجمل ذي السنام الواحد وللحصان · ويبدو أن سكان المدن الهندية قد تعلموا صهر النحاس مع القصدير بنسب صحيحة لعمل البرونز كما عرفوا قليلا من فن صب المعدن ومعظم الفؤوس النحاسية مسطحة كما ان رؤوس الرماح والحراب بسيطة في الغالب غير انه وجدت الى جانب هذه اشياء اكثر تعقيدا في صناعتها مثل المرايا التي يأخذ مقبضها شكل جسم امرأة والعربة التي تجرها الثيران وعدد من الاواني وتمثال لفتاة راقصة ذات ملامح بلوجستانية جنوبية وبالرغم من كل هذا فان فن المعدن بصفة عامة لم يصل مطلقا الى درجة كبيرة من الاتقان في حوض السند وكانت معظم الاشياء المصنوعة بطريقة الصب غير جيدة الصنع كما كان الفنان يعدل بعد ذلك ما صنعه بواسطة الطرق ·

وقد عثر في المواقع الانفة الذكر على كثير من انواع الخزر التي تشير الى العلاقات الخارجية لمدن السند لانها مستوردة من الاقطار المجاورة · فاحجار اللازورد استوردت من بلاد فارس ومن البامير أو من بادكشان بشمال شرق سلاسل جبال افغانستان الى كل من العراق والسند ولكن مستوطنات السند كانت اقل استعمالا له من العراق · اما اليشم فربما جاء من التبت أو شمال بورما كما جاءت الفضة من فارس ونقلت احجار الفيروز من أفغانستان وجيء بنوع من الحجر الاخضر يستخدم في صنع الكؤوس من

Scanned by CamScanner

جنوب الهند وكان حجر الدم (الهمتايت) الاحمر الذي يستخدم في الصباغة يؤتي به من الخليج العربي . ويبدو ان قرون الوعل التي كانت تستعمل في العقاقير ترد من الكشمير ولا يعرف طرق نقل البضائع بالتفصيل وربما استخدم الحمالون وحيوان النقل وربما استعملت العربات التي تجرها الثيران في المسافات القصيرة بين القرى والمدن وقد عثر على نماذج لهذه العربات في موهنجو دارو . ولا يوجد دليل على استخدام الخيل للجر أو النقل في حضارة السند القديمة . وكانت الاواني الفخارية غير الملونة وغير المزخرفة تصنع بدولاب الفخار بكميات وفيرة في مدن السند واذا لونت كانت تلون باللون الاسود على أرضية حمراء فهي بذلك اقرب الى فخاريات قرى شمال بلوجستان من قراها الجنوبية وكانت اواني المدن اقل انتظاما في نقوشها من اواني القرى القديمة . وبالرغم من تجميلها بنقوش نباتية وحيوانية فانها لم تكن جيدة وهناك قليل من الاواني المتعددة الالوان التي تدل على صلة بقرى منطقة نال البلوجستانية ويدل بعض الفخار غير الملون على وجود اتصالات مع مواطن الفخار الرمادي في التركستان . ولم يتغير الفخار من حيث طريقة الصنع والشكل والزخرفة في المدن السندية الا قليلا طوال تاريخها .

ووجدت تماثيل صغيرة عديدة معظمها للنساء وبعضها ذات رؤوس أو اجزاء منفصلة يمكن تركيبها على بقية التماثيل وبعضها كانت لعبا للاطفال أو تمائم لجلب الحظ ودفع الحسد وتمتاز المدن السندية بالاختام المنقوشة ومعظمها تعود الى القرنين أو الثلاثة قرون الاخيرة من الالف الثالث قبل الميلاد . وتدل هذه الاختام على ان التجار الهنود أو عملاؤهم كانوا يتاجرون مع اور وغيرها من المدن السومرية . وكانت الاختام في الغالب مستطيلة أو قرصية الشكل ومعدة لختم مواد لينة وهي مزينة بنقش خاص محفور بعناية يمثل صورة لثور ذى سنام أو فيل أو ببر والى جانبه كتابة لم تعرف اسرارها بعد . هذا وقد خلت المدن السندية من التماثيل

Scanned by CamScanner

والنصب التذكارية ومن المعابد والقصور والمقابر البارزة . ان سر التنظيم في المجتمعات السندية التي استمرت فترة طويلة من الزمن لايكمن في دولة ذات طابع حربي بل في دولة ثيوقراطية يغلب عليها الطابع الديني . ان وجود القلاع الكبيرة في المدن الرئيسية التي بلغ ارتفاعها ٤٠ قدما ومساحتها ٦٠٠ ـ ٩٠٠ × ١٣٥٠ ـ ١٥٠٠ قدماً في العرض والطول تشير الى مباني ذات أهمية دينية . ان مثل هذه المباني في هارابا قد سرقت ونقل منها الطابوق ولكن تلك التي في موهنجو دارو تشير الى وجود مخزن حبوب كبير ورصيف لنقل البضاعة أو حوض سباحة يحيطها عدد من الغرف لتغيير الملابس وهي تدل على التطهر لاغراض الاحتفالات الدينية وهذه ظاهرة بارزة في الهندوسية الحديثة وعلى مقربة من حوض السباحة وجد عدد كبير من الغرف التي ربما كانت لسكنى الكهنة . وهناك تماثيل لالهة ام من الفخار ورسوم للالهة على الاختام منها صور تختلط فيها الصفات البشرية والحيوانية وتشير بوجه خاص الى صورة مخلوق له لباس رأس مقرن وتزين يديه اساور ويجلس على مقعد على غرار صور الاله سيفا Siva اله الحيوانات .

وبصورة عامة يتضح من المخلفات الاثرية التي اكتشفت في القرى القديمة في بلوجستان والسند قيام حضارة زراعية حوالي عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد وتطورت هذه الحضارة من حضارة العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا وكان القمح والشعير عماد تلك الزراعة وتوحي الرسوم العديدة للماشية التي كان بعضها يستخدم في اعمال الجر والنقل بان الاساس الاقتصادي لحضارة هذه المنطقة كان مزيجا من الزراعة وصناعة الالبان ويبدو أن العجلة المستخدمة في النقل وصنع الفخار وكذلك المغزل كانت معروفة عند هؤلاء الفلاحين ومن المحتمل ان يكونوا قد زرعوا القطن بدليل وجود الملابس القطنية بين الاثار . وقد شكل هؤلاء المزارعون من حجر الصوان والنحاس ثم البرونز آلات وادوات منها فؤوس وسكاكين ومناجل

Scanned by CamScanner

ومن اهم ما عثر عليه جزء من مسطرة مصنوعة من البرونز مقسمة الى اجزاء محدودة مما يثبت ان سكان وادي السند كانوا على علم تام بالمقاييس المضبوطة وعثر في مخلفاتهم على موازين مصنوعة من البرونز . وكانت الاواني الفخارية كثيرة العدد متنوعة ومصنوعة على الدولاب ومعظمها كانت اواني للطبخ خشنة ولكن الاواني الجيدة الصنع كانت تلون باللون الاسود فوق ارضية حمراء . وفي حالات قليلة وجدت اواني ملونة بعدة الوان .

اما النقوش فاكثرها ازهار والقليل منها حيوانات وزخارف هندسية ووجدت تماثيل صغيرة لا حصر لها مصنوعة من الطين واغلب الظن ان الكثير منها كانت لعبا للاطفال . وقد عثر على كثير من التماثيل النسائية غير المتقنة وهي عارية ولا تلبس الا بعض ادوات الزينة وهي على الارجح تماثيل للالهة الام التي كانت مرتبطة بعقائد الخصب ومن المحتمل ان معظم التماثيل الكبيرة كانت تصنع من الخشب غير انها بليت ولم تبق لحد الآن.

وأهم الأعمال الفنية التي بقيت من تلك الحضارة هي الاختام المسطحة ذات الشكل المستطيل التي كانت تصنع من حجر جيري أبيض يسهل نحته وكانوا ينقشون عليها صورا لحيوانات أو كائنات خرافية وجميع تلك الحيوانات هي حيوانات هندية ويعتبر الشكل الذي يمثل فيلا على ظهره غطاء ذا أهمية خاصة لانه يعتبر أول دليل على استئناس ذلك الحيوان وهناك رسوم عديدة تمثل اشجارا تتفيأ بظلها حيوانات مما يشير الى انتشار عبادة الاشجار . ونلاحظ على كثير من الاختام قليلا من الكتابة بحروف لا تشبه أية حروف أو علامات معروفة في أي مكان آخر ويبدو من الدقة التي رسمت بها تلك العلامات ان حضارة وادي السند قد استخدمت المقاطع في الكتابة التي لم تحل رموزها لحد الآن .

Scanned by CamScanner